جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الدراسات الأدبية

صورة النيل في الرؤية الشعرية

لشعراء مصر والسودان

خلال النصف الأخير من القرن العشرين

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الباحث

جمعة محمد جمعة الوديني

إشراف

الأستاذ الدكتور:

صلاح الدين رزق

الأستاذ بقسم الدراسات الأدبية

الأستاذ الدكتور:

محمد عبد العزيز الموافي

الأستاذ السابق بقسم الدراسات الأدبية

(يرحمه الله)

مقدمة

إن الحمد لله، نحمدك اللهم حمد الشاكرين، ونتوب إليك توبة العائدين، ونصلي ونسلم على الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد:

ربما لا نجد نهرًا من أنهار العالم استحوذ على اهتمام الشعراء والأدباء والمفكرين استحواذ نهر النيل عليهم؛ وذلك لما أفاضه على سكان واديه من الخير والنعم الكثيرة، بالإضافة إلى مناظره الخلابة الساحرة التي يجد الشاعر فيها بغيته من صور أدبية، وخيال شعري.

والشعراء لا يرون في النيل أنه مصدر الخير والنماء فقط، وإنما يرون فيه رمزًا للحرية والانطلاق، ورمزًا للقوة والتماسك بين الشعوب، وكذلك رمزًا للعطاء بلا حدود، ولذلك احتل النيل مكانة عظيمة بين شعراء العصر الحديث، لا سيما النصف الأخير من القرن العشرين – فترة الدراسة – حيث أكثر الشعراء من وصفه وتمجيده، والتحاور معه والشكوى إليه، وكان لكل شاعر من شعراء هذه الفترة نظرة مختلفة عن الآخر، يراه كل منهم حسب حالته النفسية التي يعيشها، ومشاكله التي يعاني منها.

وقد تناول النيل بالدراسة من الناحية الأدبية قبلي دراستان جامعيتان؛ الأولى تحت عنوان: "النيل في الأدب المصري من العصر الإسلامي إلى آخر القرن السادس الهجري"، وهذه الدراسة للدكتورة نعمات أحمد فؤاد، وقد نوقشت في كلية الآداب، جامعة القاهرة عام ١٩٥٩م، وكانت دراسة تاريخية أكثر منها أدبية، بالإضافة إلى أن المدة الزمنية التي تناولتها الدراسة بعيدة كل البعد عن دراستنا.

أما الدراسة الثانية فكانت بعنوان: "نيل مصر وآثارها في شعر رواد البعث والإحياء"، وهي للباحثة أمينة محمد فرغلي عيسوي، وقد نوقشت في كلية البنات الإسلامية، جامعة الأزهر عام ٢٠٠١م، وتوقفت هذه الدراسة عند شعر رواد البعث

والإحياء فقط، وكان اهتمامها الأكبر بالآثار المصرية التي وردت في شعرهم، وجاء النيل فيها باعتباره معلمًا من معالم مصر، ولم تقترب من دراسة الجانب الفني أو بيان صورته عند هؤلاء الشعراء.

ولما كانت هاتان الدراستان بعيدتين عن صورة النيل في النصف الأخير من القرن العشرين عند شعراء أهله من سكان مصر والسودان الشقيقة كان اختيارنا لهذا الموضوع، وذلك لمحاولة الكشف عما يضمه شعرنا المصري والسوداني من نفائس شعرية عن نيلنا العظيم، وقد جعلنا هذه الدراسة في بابين كبيرين.

الباب الأول: النيل وآفاق التجربة الشعرية ، وفيه الفصول التالية:

الفصل الأول: النيل بين الوصف السطحي والرؤى العميقة؛ حيث ذكرت من الأشعار ما يعتبر مجرد وصفًا سطحيًّا لجمال النيل الذي يبهر كل من يراه، ثم ذكرت الرؤى العميقة في وصف النيل، والتي لا تتوقف عند مجرد وصف الجمال الظاهر، وإنما ترمي إلى استغلال هذا الجمال في العبير عما يدور في خلجات الشاعر.

والفصل الثاني: النيل وتجربة الاغتراب، وفيه تناولت الاغتراب الحقيقي، والاغتراب النفسي في شعر النيل.

أما الفصل الثالث: رؤى وطنية في شعر النيل، وفيه تحدثت عن النيل والتصدي للغزاة، ثم النيل والوحدة بين مصر والسودان.

والباب الثاني: الدراسة الفنية، وفيه الفصول التالية:

الفصل الأول: البنية الإيقاعية، وفيه درست الموسيقى الخارجية، والموسيقى الداخلية.

الفصل الثاني: المعجم الشعري، وقد بينا فيه أهم الحقول المعجمية التي تميز بها شعر النيل.

الفصل الثالث: الصورة وبنية الشكل الفني، وفيه قمت بدراسة الصورة التقليدية من تشبيه واستعارة وكناية وغير ذلك، وكذلك تناولنا الصورة الكلية والبناء الدرامي في قصائد النيل، ثم ختمنا بمبحث لآفاق الرمز وإمكانات التأويل في شعر النيل باعتبار الرمز لعب دورًا مهمًّا في الصورة الشعرية هنا.

وكانت **الخاتمة** لذكر أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وقد سبق كل ذلك **بمقدمة وتمهيد** بينا حالة النيل في الشعر الذي سبق فترة دراستنا.

وكان من أسباب اختياري لهذا الموضوع – بالإضافة إلى عدم دراسة النيل في هذه الحقبة الزمنية – أن الشعر السوداني يعاني من إهمال كبير من الدارسين المصريين مع ما فيه من درر نفيسة، وما تمتع به كثير من الشعراء السودانيين من درجة عظيمة من الإتقان الشعري كالدكتور عبد الله الطيب وإدريس محمد جماع وجيلي عبد الرحمن وغيرهم.

وقد كان لهذا الإهمال الذي يعانيه الشعر السوداني أثره الواضح في ندرة الأبحاث الأدبية التي تدرس الشعر السوداني وتبين خصائصه وتطوره على مر العصور من المكتبة العربية عمومًا والمصرية خصوصًا، وهذا ما لاحظته أثناء دراستي هذه؛ فقد وجدت كثيرًا من المكتبات التي نعتبرها من أكبر المكتبات العامة في مصر تكاد تخلو من دواوين الشعراء السودانيين، أو – على الأقل – يندر وجود هذه الدواوين فيها – وهذا ما يجعل البحث يحتاج إلى مجهود كبير في محاولة الحصول على القصائد النيلية لشعراء القطر السوداني الشقيق.

أما عن تحديد هذه الحقبة دون سواها بالدراسة فيرجع إلى أنها تعتبر أرضًا بكرًا للدراسة على عكس أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين؛ حيث نجد أن أغلب شعرائه قد قتلوا بحثًا كما يقولون.

لكل هذه العوامل كان اختيارنا لهذا الموضوع، ونسأل الله العظيم أن نكون قد وفقنا فيه، وأن ينفع به مكتبتنا الأدبية، ويكون حجرًا في بنائها العظيم.

والآن لا يسعني إلا أن أتوجه بخالص الدعاء والعرفان لأستاذي المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز الموافي، فما بخل عليَّ بنصح أو إرشاد في الفترة التي قضاها مشرفًا على البحث قبل أن يتوفاه الله، فأسأل الله أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناته، وأن يسكنه فسيح جناته.

كما أتوجه بكل الشكر والعرفان لأستاذي الجليل الأستاذ الدكتور صلاح رزق، الذي تحمل العبء الأكبر في الإشراف على هذا البحث، فقد أرهقته كثيرًا بكثرة التردد عليه مستفسرًا ومسترشدًا بعلمه، وما تأخر – جزاه الله خيرًا – في نصح أو توجيه للبحث مع كثرة مشاغله وأسفاره.

فجزى الله هذين العالمين كل خير ورشد، وجزى الله كل من وقف بجانبي لخروج هذا البحث المتواضع للنور.

كما أتوجه بالشكر والتقدير:

للأستاذ الدكتور/ **عبد الحميد شيحة** (أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة).

والأستاذ الدكتور/ **عصام خلف** (أستاذ الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم، جامعة المنيا) على تحملهما مشقة قراءة البحث وتوجيهه.

تمهيـــد

النيل: نهر مصر، حماها الله وصانها، وقيل: نيل: نهر بالكوفة، وقال الأزهري: رأيت في سواد الكوفة قرية يقال لها: النيل، يخرقها خليج من الفرات الكبير، قال: وقد نزلت بهذه القرية، وقال لبيد:

مَا جَاوَزَ النِّيلُ يَوْمًا أَهْلَ إِبِّيلَا.

وجعل أمية بن أبي عائذ السحاب نيلًا، فقال:

أَنـاَخَ بأعجـازٍ وجاشـتْ بحـارُه ومـدَّ لـه نيـلُ الـسماءِ المنـزلُ[1]

وقال الفيروزآبادي: "والنيل – بالكسر – نهر مصر"[2].

هذا عن كلمة النيل في معاجم اللغة؛ فقد اقتصر القول فيها على ذكر أن النيل هو نهر بمصر أو نهر بالكوفة، أو يطلق على قرية في سواد الكوفة، أو يطلقه العرب على السحاب.

أما عن أصل التسمية نفسها، وماذا تعني كلمة النيل، فلم تذكر المعاجم من ذلك شيئًا، ولعلنا نجد في الموسوعات العامَّة بُغيتنا؛ حيث جاء فيها أنَّ النيل اسم للشيء الذي يُنال منه، " فهو من الفعل نال ينال نيلًا، أو من نال ينول نولًا، يقال: نوَّلته تنويلًا، ونلته نولًا: إذا أعطيته، والنيل: اسم ما يُنال مثل الرَّعي للمصدر، والرَّعي لماء يُرعى "[3].

---

[1]) لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، د.ت، (٤٥٩٤/٦)، مادة: "نَيَلَ".
[2]) القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م، ص٩٦١، مادة: "نَيَلَ".
[3]) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، عبد اللطيف البغدادي، (قصة المجاعة الكبرى بمصر عام ٦٠٠هـ)، تحقيق، أحمد غان سبانو، دار قتيبة، دمشق، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٧٨.

وبعضها يرى أنَّ النيل يرجع إلى الاسم اليوناني "نيلوس"، ومنها ما يُرجع اسم النيل إلى اللفظة اللاتينية "نيلوس"، واليونانية "نايلوس"[١].

ويرى الدكتور الشامي أن "اسم النيل منحدرٌ من لفظ "أيال" القبطي، الذي استُخدم للتعبير عن النهر الكبير العظيم بعد إضافة المقطع "ني"، كأداة تعريف للجمع المستخدمة في اللغة القبطية، ويعني ذلك أنَّ الاسم قد ظهر حسب هذا الرأي مكونًا من مقطعين، هما: "ني أيال"؛ لكي تصبح في النطق العادي "نيالو"، وقد أضاف اليونانيون إليها المقطع "os"؛ لكي تصبح نيالوس، ثم حُذفت بعد ذلك في استخدام العرب"[٢].

وبعد دراسة ليست بقصيرةٍ قامت بها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد عن اسم النيل العظيم، أيَّدت أن كلمة النيل ترجع إلى كلمة "نيالو" القبطية، التي أخذ اليونانيون عنها قولهم "نايلو"، التي انتهت عند العرب بكلمة نيل، كما أوضحنا[٣].

ونخلص من هذا كله إلى أنَّ العلماء استقروا على أنَّ لفظة "النيل" ترجع إلى اللفظة اللاتينية "نيلوس"، وليست لفظة عربيةَ الأصل - كما يتخيل بعضهم - وقد وافقت لغتنا العربية في وصف النيل في حقيقته ونواله، فاستحسنها العرب وتمسكوا بها، وغدت علمًا على نهر النيل، الذي هو في مصر.

وقد ورد ذكر النيل في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ما بين التصريح والتلميح، ذكر السيوطي[٤] أن التيفاشي[٥] في كتاب "سجع الهديل" قال: ولم يُسمَّ نهر

---

[١]) انظر: النيل في الأدب المصري، د. نعمات أحمد فؤاد، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢هـ، ص٣٩.
[٢]) دراسات في النيل، د.صلاح الدين الشامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٧.
[٣]) النيل في الأدب المصري، د. نعمات أحمد فؤاد، ص٣٩.
[٤]) انظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، (٣٠٢/٢).
[٥]) التيفاشي: هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج بن ميمون، ولد عام ٥٨٠هـ، وتوفي عام ٦٥١هـ، وكان مولده في تيفاش بالجزائر، وكان عالمًا موسوعيًّا، من أهم مؤلفاته: "سجع الهديل في أخبار النيل"، وهو موسوعة في تاريخ و جغرافية نهر النيل، و يبدو أن ما نقله السيوطي هنا من هذا الكتاب.

من الأنهار في القُرآن الكريم سوى النيل، في أكثر من سياق: الأول: سياق الحديث عن أمِّ موسى حالَ ولادته[1]، فاليمُّ الذي ألقته فيه هو النيل[2].

أما السياق الثاني فجاء على لسان فرعون، في قوله سبحانه وتعالى: "أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١)" [الزخرف]، فالمراد بالأنهار: النيل وفروعه [3].

وقيل: إنَّ يوم الزينة في قوله تعالى: "مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى(٥٩)" [طه] – هو يوم وفاء النيل؛ حيث كان يجتمع المصريون للاحتفال به؛ فيخرجون ويتنزهون في أرجاء مصر، وذلك بعد أن ينكسر فيضانه وتأمن الديار المصرية من تدميره[4].

وبالجملة، فإن صورة النيل في القرآن الكريم تدلُّ على الفخر والاعتزاز به، حين تعالى فرعونُ على شعبه بمُلكه مصر ونيلها، وحين جاءت لفظة "الأنهار" بالجمع للدلالة عليه، وحين تردد ذكره في القرآن دون سائر الأنهار، أليس في هذا كله مفخرة له، وبيان لمكانته العظيمة؟

هذا عن ذكر النيل في القرآن، أمَّا الأحاديث والآثار، فقد كَثُرت حوله، منها ما رواه الإمامان مسلم وأحمد أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "سَيْحان وجَيْحان والنِّيل والفُرات كلٌّ من أنهار الجنة"[5].

---

[1]) انظر: سورة القصص: ٧.
[2]) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، (٢١٣/١١).
[3]) تفسير القاسمي، المسمَّى: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: أحمد بن علي حمدي صبح، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣، (٢٨٤/١٤).
٤) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي، (٢٥٠/١٣، ٢٥١).
[5]) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: ما في الدنيا من أنهار الجنة، (٣٩٥١/٩)، رقم: (٧٠٢٨)، مسند أحمد، مسند أبي هريرة، (٦/١٥)، رقم: (٧٨٧٣).

وروى البخاري حديثين عن منبع النيل وهو الجنة، وذلك ضمن حديث النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإسراء والمعراج، والذي يقول فيه صلَّى الله عليه وسلَّم: "ورُفِعَتْ لِيَ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، ... فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ"[1].

وأمَّا الشعر الذي هو موضوع بحثنا، فلم يهمل النيل على مرِّ العصور المختلفة، وإنَّما كان له حظ وافر منه، يقل حينًا، ويزداد أحيانًا؛ فقد احتل النيل من الأدب العالمي مكانة مرموقة منذ أقدم العصور، منذ أن بدأ الإنسان يعبر عن إحساسه ونظرته إلى الكون من حوله؛ إذ نظر حوله فرأى النيل العظيم مظهرًا من أهم مظاهر الطبيعة، فلا غَرْوَ أن كان مصدر إلهام للشعراء من حوله.

لذلك فما زال الشعراء منذ أقدم العصور حتَّى عصرنا هذا ينهلون من جماله وبهائه أجملَ الصُّور، وأعذبَ الألحان، وأجَلَّ المعاني؛ ففي الأدب المصري القديم كان للنيل نصيب وافر منه؛ إذ قال فيه المصريون أغاني وأناشيد كثيرة تدُلُّ على حبِّهم له، بل وتقديسهم إيَّاه؛ لكونه السبب الرئيسَ في صيانة أرواحهم من القحط والجدب، وانتشار الفاقةواستحكام الضيق إذا جفَّ النيل، ولم يَفِضْ بمَائِهِ على أرض مصر، ويرجع سبب كونه المصدر الأساسيَّ في صيانة أرواحهم إلى أنَّهم كانوا يُقبلون على العمل بالزراعة والاعتناء بها أكثر من أي عمل آخر، فلم تكُن الصناعات أو غيرها من الحِرَف ذات اهتمام كبير كالزراعة؛ لذلك جعلوا النيل إلهًا مقدسًا يُقدِّمون له القرابين، وتُقام له الشعائر والصلوات.

وإذا كان النيل محطَّ تقديسهم وعبادتهم، فلا عجب أن تُقال فيه الأناشيد، وتُنظم فيه الأشعار، ويُغنَّى له في الأعياد والمناسبات المختلفات؛ "فمن لوازم الفطـرة الراقيـة

[1]) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: بَدْء الخلق، باب: ذكر الملائكة، (٦/٣٤٨)، رقم: (٣٢٠٧).

ابتكار الأناشيد في المناسبات، التي ترتاح النفوس فيها إلى الترنُّم بما يُستطاب لأجلها افتخارًا وتلذذًا واستبقاءً لحُسن الأحدوثة، فيتداول الناس الأناشيد كلما تجددت الذِّكرى للاحتفالات، وقد اختص المصريون القدماء النيل بما ألفوه من مظاهر الأفراح، ودلائل المسرَّات عند فيضانه ومواسم أعياده، وقد خَصُّوه بأناشيد رائعة تُعْرِب عن شدَّة شعورهم، ومن بينها الأنشودة التي نَمَّقَها الشاعر المصري القديم، ووجدت مكتوبة في لوحتين من ورق البردي معروفتين بورقتي "ساليير" و "أنطاسي"، وهما من مجموعة الأوراق البردية المحتَفَظ بها إلى الآن في المُتْحَفِ البريطاني، وترجمها العالمان الأثريان الشهيران "ماسبرو" و "جيس"، وهما اللذان نقلاها من الشعر المصري القديم، وترجمتها إلى العربية نظمًا:

نُسْدِي إِلَى النِّيلِ سَلامًا عَاطِرًا لأَنَّه قَد جاءَنَا مُبَاكرًا

اليومَ عيدُ النيلِ في بُشراهُ فكلُّنا تسرُّنا لُقياهُ

النيلُ يُحيي فيضهُ بلادَه وهي له تُلازمُ العبادهَ

منظرهُ يروقُ للأبصارِ وسِرُّهُ معجزةُ الأفكارِ

....

ويظلُّ الشاعر يُفرد في وصف النيل وبيان مكانته عند المصريين في أكثر من خمسين بيتًا، ثم يختمها بتقديس النيل واتخاذه ربًّا من دون الله، فيقول:

مصرُ تعدُّ النيلَ ربًّا ساميًا فاجعلْ لنا بالفيضِ حظًّا ناميًا

واجعلْ بني النيلِ على سواهمُ يَرْقُون شأنًا رغمَ مَن عاداهمُ

آمين، آمين، آمين[1]

وإذا كان النيل وراء هذا النشيد، فقد كان أيضًا وراء كثير من الأناشيد، التي تغنَّت بسحر جماله ونعمه، التي استحقت - في نظرهم - التقديس والإجلال، وقد جمعت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد طائفة كبيرة من هذه الأناشيد؛ للدلالة على مكانة النِّيل في الأدب المصري القديم[2].

وإذا تركنا الأدب المصري القديم، وانتقلنا إلى الأدب العربي بعد الفتح الإسلامي لمصر؛ لنرى مكانة النيل في الشعر، فإننا نجد أول ما نجد الدكتور محمد عوض محمد يقول: "والذي نلاحظه من غير مشقة أن نهر النيل لم يجد في الأدب العربي القديم من يُعنى بشأنه، سواء أكان الشاعر ممن زار مصر وأقام على ضفاف النهر، أم ممن سمع به، وكان من الجائز أن يصفه على السَّماع كما فعل الشعراء الإنجليز...

وقد زار مصر من كبار الشعراء العرب عدد ليس بالقليل: من بينهم أبو نواس، وقد مدح والي مصر "الخصيب" بشعر جيد لم يَرِد فيه ذكرُ النيل ومصرَ إلا عَرَضًا، ونشأ في مصر أبو تمام حبيب بن أوس، وفى شعره الكثير الذي وصف فيه الربيع والمطر والسَّحاب والخمر والشِّعر، وغير ذلك من الموضوعات، ولا نراه يذكر مصر ونيلَها، مع أنه كان يسقي ماءَ النيل بالجَرَّة في المسجد الجامع بمصر، كذلك من أشهر مَن زاروا مصر - كما هو معروف - أبو الطيب المتنبي، وقد ذكر النيل عرضًا في قصيدة يصف فيها الأسد الذي قتله بدر بن عمار [3].

فالسببُ في قلة اهتمام الشعراء عقب الفتح الإسلامي بالنيل، هو أنَّ هؤلاء

---

[1]) النيل في عهد الفراعنة والعرب، أنطوان زكرى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص١١١: ١١٤.
[2]) ينظر: النيل في الأدب المصري، د. نعمات أحمد فؤاد، ص٧١: ٨١.
[3]) مجلة "المجلة"، العدد الثامن، المحرم ١٣٧٧هـ، أغسطس١٩٥٧م، مقال بعنوان: "نهر النيل في الأدب"، د. محمد عوض محمد، ص٧، ٨.

الشعراء كانوا غير مصريين أتوا مصر من أجل المدح وانتظار العطاء، فلم يشغلهم جمال النيل بقدر ما شغلهم بريق الذهب والعطايا المنتظرة من الممدوح، ولم تكن اللغة العربية وملكة الشِّعر قد أُوتيت للمصريين بعدُ، فسكان مصر لم يتخذوا اللغة العربية لسانًا لهم، ولم تصبح مصر ميدانًا للأدب إلا بعد الفتح بفترة ليست بقليلة، ومن الطَّبعي أن يتغنَّى أبناء النيل بجماله أكثر من غيرهم.

فلمَّا اتخذت مصر الإسلام دينًا، والعربية لغة، وأخرجت شعراء من أبنائها، اختلف الوضع، وتبدل الحال، وأحسَّ أبناؤها هؤلاء بالنيل، فنظموا فيه كثيرًا من الأشعار رقيقة المعاني عذبة الألحان.

ومن أجمل ما قيل في هذه الحقبة قول تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (ت: ٣٧٥هـ):

يـــومٌ لنـــا بالنيـــل مختـــصرٌ ولكـــل يـــوم مـــسرَّةٍ قِـــصَرُ

والـسفْنُ تَـصعَد كـالخيولِ بنـا في موجـــةٍ والمـــاءُ ينحـــدرُ

فكـــأنما أمواجُـــه عكـــنٌ[1] وكـــــأنما داراتُـــــه سُرَرُ[2]

وعلى الرغم من أن هذه الأبيات تعبيرًا عن نزهة مختصرة للشاعر بالنيل إلا أنها جعلته يرسم النيل في لوحة فنية فائقة الجمال؛ حيث صور السفن في النيل أثناء مقابلتها الموجة العالية بالخيل التي تصعد جبلاً ثم تنزل، فكذلك السفينة ترتفع إلى أعلى عند قدوم موجة النيل، ثم تهبط في نهايتها حين تنحدر الموجة من تحتها، وهذه الأمواج في صعودها وهبوطها تشبه تضاريس البطن الممتلئة لحمًا وسمنًا في انطوائها وتثنِّيها.

---

[1]) عكن: جمع عكنة، وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنًا وعبالة.

[2]) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٤١.

وقال ابن نباتة المصري (ت: ٧٦٨هـ):

وافــــــتْ أصــــــابعُ نيلِنـــــا   وطمـــت فأكمـــدتِ الأعـــادي
وأتـــــت بكـــــل جميلـــــةٍ   مـــاذي أصـــابع ذي أيـــاد[١]

وقال ابن قلاقس (ت: ٥٦٧هـ):

انظر إلى الشمسِ فوقَ النيـلِ غاربـةً   وانظـر لمـا بعـدها مـن حمـرةِ الـشفقِ
غابتْ وألقـتْ شـعاعًا منـه يَخْلُفُهـا   كــأنها احْتَرَقَــتْ بالمــاءِ في الغـــرقِ
وللهـــلالِ فهًـــا وافى ليُنْقِـــذَها   في إثرها زَوْرَقٌ قـد صـيغَ مـن ورقِ[٢]

لقد حرص الشاعر في هذه الأبيات على تصوير النيل في أجمل وقت يراه فيه الناظر، وهذا الوقت هو وقت غروب الشمس وسقوط حُمرة الشفق على ماء النيل فتختلط مع لونه الأزرق؛ ليثير في النفس كثيرًا من الشجن، ما بين الفرحة والحزن، ثم يجعل غروبها هذا غرقًا في ماء النيل، وظهور القمر بعد غروبها هو محاولة لإنقاذها من هذا الغرق.

وقد ذكر السيوطي في "حسن المحاضرة" مجموعة من الأشعار، قالها العرب في النيل[٣].

وظل حال الشعر في مصر في ازدهار حتَّى "أتى على البلاد حينٌ من الدَّهر فقد فيه الأدب مكانته، وأخذ يتدلى إلى الحضيض، وأصبح ضَيِّق الأغراض، ضعيف

[١]) ديوان ابن نباتة المصري، تقديم: د. عوض الغباري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٦٣.
[٢]) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، أحمد بن على بن عبد القادر المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ، (١١٩/١).
[٣]) حسن المحاضرة، السيوطي، (٢/ ٣١٩: ٣٢٣).

العبارة، وامتدت هذه الفترة من الفتح العثماني في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، حتى القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي؛ حيث ظهرت الحركة العلمية والأدبية الحديثة، واستعاد الأدب مكانته السابقة، وعادت إلى الشعر جزالته وروعته، وتعددت أغراضه، وظهر من الشعراء من دان لهم الشعر، وأسلس لهم قياده"[1]، منهم في مصر البارودي، وشوقي، وحافظ وغيرهم كثير، وفى السودان التيجاني يوسف بشير، والحسيني الزهراء، ومحمد عمر البنا، والشيخ العباسي وغيرهم.

ومن أجمل ما قيل في النيل في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي (ت: ١٩٣٢):

مـن أي عهـدٍ في القـرى تتـدفقُ؟ وبـأي كـفٍّ في المـدائنِ تغـدقُ؟

ومن السماءِ نزلتَ أم فجرتَ مـن عليـا الجنـانِ جـداولًا تترقـرقُ؟

وبـــأيِّ عـــينٍ أم بأيَّـــةِ مُزنـــةٍ أم أيِّ طوفـــانٍ تفـــيضُ وتفهـــقُ؟

وبـأيِّ نـولٍ أنـت ناسـجُ بـردَة للـضفتين، جديـدها لا يخلـقُ؟

تـــسودُ ديباجًـــا إذا فارقتهـــا فإذا حضرت اخضوضرَ الإستبرقُ

في كـــلِ آونـــةٍ تبـــدل صـــبغة عجبًـا وأنـت الـصابغُ المتـأنقُ[2]

إن النيل في نظر شوقي فنانٌ ينسج بنوله أعظم بردة تكسو الضفتين، وذلك حين تكسوهما الخضرة من جرَّاء مائه العذب، إن الشاعر جعل شطآن النيل تسوَدُّ إذا فارقها، وتخضَرُّ إذا فاض بمائه.

---

[1]) نهر النيل في المكتبة العربية، محمد حمدى المناوي، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٦٣.
[2]) الشوقيات، أحمد شوقي، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٣م، (٦٤/٢، ٦٥).

وقال الشاعر الشيخ محمد سعيد العباسي من شعراء السودان (ت: ١٩٦٣) معبرًا عن دور النيل في تماسك مصر والسُّودان، واعتباره معنى صادقًا لتلك العلاقة بين البلدين:

لنـا بالـدينِ والفـصحى ائـتلافٌ وثيـقٌ ضـمَّ شَـعبينا قرونًـا

ونيـلٌ فـاضَ كـوثرُه فـأجرى بواديِـه الحيـاةَ لنـا معينًـا[1]

والاهتمام بالنيل قد اختلف في هذه الحقبة عما سبق؛ إذ أصبح الشُّعراء يفردون له قصائد مستقلة، تحمل اسمه عنوانًا لها، بعد أن كان يُذكر عرضًا في قصائدهم.

لقد استعاد النيل مكانته في الأدب العربي مرة أخرى - كما كانت في الأدب المصري القديم - بعد النهضة الأدبية التي كانت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وظل الحال كذلك طوال القرن العشرين، واهتمام الشعراء بالنيل في النِّصف الأخير من القرن العشرين كان لافتًا للنظر؛ إذ يصف الشعراء النيل وصفًا دقيقًا يُبيِّنون جماله ومفاتنه كما يتغزلون بالمرأة الجميلة، ولا يقتصر الأمر عند ذلك، بل كان في اتحاده وتماسكه مثلًا أعلى لهم في الدعوة إلى اتِّحاد مصر والسودان ضد العدو، كذلك اتخذوه قدوة لهم في العطاء دون مقابل، إلى جانب اتخاذه رمزًا لقضايا عديدة لم يصرِّحوا بها.

ولم يتوقف سحر النيل عند شعراء أهله من المصريين والسودانيين فقط، ولكن عظمته استطاعت أن تُغْري غيرهم ممن زاروا مصر ورأوا جماله، أو ممن سمعوا به ولم يرَوه، سواء من الشعراء العرب أم من غيرهم.

فهذا هو عمر أبو ريشة الشاعر السوري رأى حسناء في مدريد، فشعر أنه عاش

---

[1]) ديوان العباسي، محمد سعيد العباسي، دار الفكر العربي، د.ت، ص١٢٠.